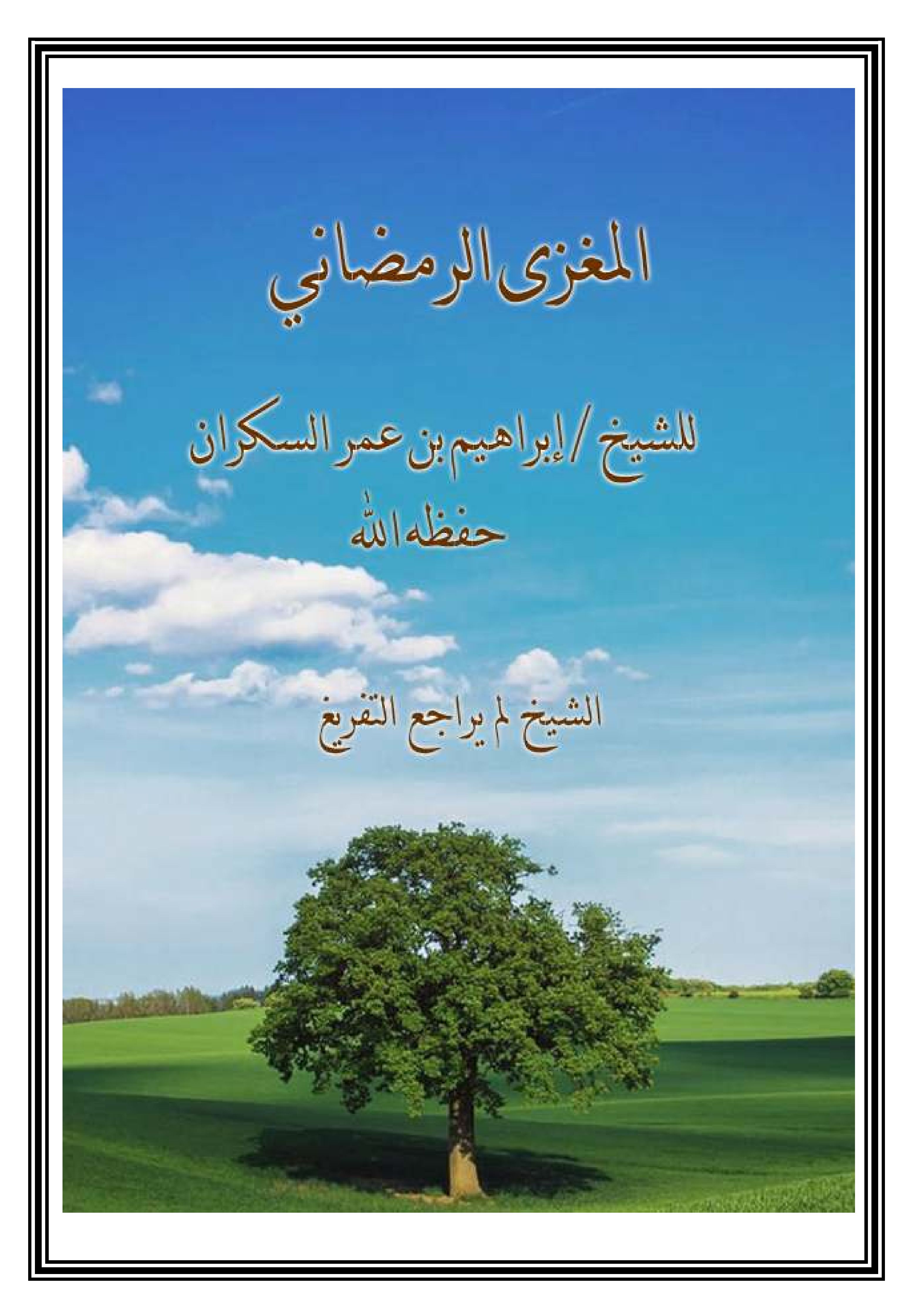

المغزى الرمضاني
للشيخ / إبراهيم بن عمر السكران
حفظه الله
الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

المجلس الأول

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

يا حيا الله الإخوة جميعاً ولا يفصلنا اليوم عن رمضان كما تعلمون إلا بضع ليال، والمرء إذا كان ينتظر زائراً غالياً علىٰ نفسه وله منزلةٌ في قلبه فإنه ينشغل قلبه به قُبيل موعد قدومه، ولا يليق أن يقترب منا هذا الشهر الكريم والقلوب في برود عدم الاكتراث.

وإنما هذا لا يكون غالباً إلا من الغِشاوة التي تتكاثف علىٰ النفوس، فلا تشعر بقدوم مثل هذا الشهر العظيم، وأما القلوب الحيَّة فإن جمر الشوق لشهر رمضان لا يزيد الاقتراب إلا حرارة، ونريد أن نتناول في عدة مجالس -إن شاء الله- بعض المعاني والإشارات حول شهر رمضان.

من هذه المعاني: (**الكفارة السنوية**)، ولعله يعبر بخاطر المرء ذكرىٰ رمضان الفائت، وها قد كُتبتْ للمستمع الحياة ليُدرك إن شاء الله هذا الرمضان الذي نخطو علىٰ أبوابه ولم يتبق بيننا وبينه إلا أيام يسيرة، طوال هذه السنة التي تفصل بين هذا الرمضان ورمضان الفائت؛ كم لنا من خطايا وكم مرةً لبسنا عار التقصير؟.

بالله عليك تذكَّر كم من سماعٍ محرم؟

وكم من نظرٍ محرم؟

وكم من كلامٍ محرم سُجِّل في صحائفنا؟ طوال تلك السنة الفائتة، وهذا هو الكريم ﷻ يفتح لنا باب الكفارة السنوية، في كل سنة هناك موعد مع كفارة سنوية، فُرصة لا تُعوَّض لغسل الصحائف.

فقد روىٰ الإمام مسلم بن الحجَّاج في صحيحه من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**الصلوات الخمس والجُمعة إلىٰ الجُمعة ورمضان إلىٰ رمضان مُكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر**» فكل ما كان من الصغائر واللمم وهو شيء مكتوب ويتذكر الإنسان بعضه لكن ينسىٰ الإنسان أكثر مثل هذه الأمور، لكنه في كتاب يقول الله ﷻ عنه: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف:٤٩].

والله ﷻ يفتح لنا باب هذه الكفارة العظيمة، فالله ﷻ يمحو هذه الخطايا والصغائر كلها، فرمضان مَطْهَرة للنفوس من جِراحات سنة كاملة، كما قال النبي ﷺ: «**رمضان إلىٰ رمضان مُكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر**».

لكن قد يقول قائل: النبي ﷺ في الحديث ذكر:

١- كفارة يومية فقال: «**الصلوات الخمس**».

٢- وذكر كفارة أسبوعية وهي «**الجمعة إلىٰ الجمعة**».

فإذا كانت الصلوات الخمس تُكفِّر الخطايا فماذا بقي للكفارة الأسبوعية التي هي الجُمعة إلىٰ الجُمعة؟ وإذا كانت الصلوات الخمس التي هي كفارة يومية والجمعة إلىٰ الجمعة التي هي كفارة أسبوعية فماذا بقي للكفارة السنوية الرمضانية؟.

يعني: هل ستُصادف هذه الكفارة السنوية الرمضانية، هل سنقول مثلا أنها ستُصادف محلاً غير قابل لظهور آثاره؟ الجواب: لا، والجواب متعلِّق **بقاعدة عامة وأصل عام في الشريعة وهو**:

- **أن الجزاء بقدر العمل.**
- **وأن آثار ومقتضيات وموجبات الأقوال والأفعال المحمودة والمذمومة في الشريعة إنما تظهر آثارها بحسب عمل العامل.**
- **وأثر العمل الصالح بتكفير الخطايا تكون قوته ودفعه بحسب إحسان المرء في عمله، وبحسب استيفاء شروط القبول).**

فمثلا الصلاة: روىٰ أبو داود في سننه عن عمار بن ياسر أن النبي ﷺ قال: «**إنَّ الرجل لينصرف من الصلاة وما كُتب له إلا عُشر صلاته، تُسعها، ثُمنها**...»، الىٰ آخر الحديث وذكر فيها خُمسُها ثُلثها نِصفها، فعلىٰ قدر ما يُكتب للعبد من صلاته، يعني: هذا القدر هو القدر المقبول تكون قدة هذه الصلاة وقوة هذه الحسنة في تكفير الخطايا كما قال الحق تبارك وتعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤].

فبحسب قوة المقتضي تكون قوة دفع الموانع، وهكذا صلاة الجمعة فإنها داخلة في هذا العموم الذي هو الكلام عن الصلاة، وإن كان أيضًا دلَّت النصوص الأخرىٰ علىٰ تفاوت الناس تفاوتًا شديداً في تحصيل الإحسان في صلاة الجمعة.

يعني بصورة أدق: كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**من اغتسل يوم الجمعة غُسل الجنابة ثم راح فكأنما قرَّب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرَّب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرَّب كبشًا أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرَّب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرَّب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر**».

فعلىٰ قدر ما حصَّله المؤمن من فضيلة الجمعة تكون قوتها في دفع الخطايا، تكون قوتها في محو الخطايا، وعليه فإنَّ المؤمن إذا كان قد حصل منه تقصير في الخشوع في الصلوات الخمس وتقصير في صلاة الجمعة فالله ﷻ الجواد يفتح لنا باب كفارة سنوية «**ورمضان إلىٰ رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر**»، وهذا المعنىٰ أو هذا الأصل العام في الشريعة نبَّه عليه أبو العباس بن تيمية في مواضع ومنها موضع مهم في «**منهاج السنة**» لما تحدَّث عن القاعدة نستطيع تسميتها (**الأسباب العشرة الدافعة لعقوبة الذنب**).

وهو بالمناسبة موضع مهم وثمين ويستحق أن يُفرد، يمكن أن يُفرد أيضًا في رسالة لأنه موضوع متكامل، وكان منها مما تحدث عنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (**السبب الثالث وهو: الأعمال الصالحة التي تكفر الخطايا والحسنات الماحية**)، فتكلَّم شيخ الإسلام ابن تيمية في أثناءه وقال سؤال، قال: فإن الإنسان قد يقول: إذا كُفِّر عني بالصلوات الخمس فأيُّ شيءٍ تُكفِّر عني الجمعة أو رمضان؟.

هذا سؤال سأله أبو العباس بن تيمية، سؤال نفسُه طرحَه فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في الجواب علىٰ ذلك قال: (**المحو والتكفير يقع بما يُتقبَّل من الأعمال**)، هذه قاعدة، (**المحو والتكفير يقع بما يتقبل من الأعمال، والله تعالىٰ إنما يتقبَّل من المتقين، وأكثر الناس يقصرون في الحسنات، فلهذا يُكفَّر بما يُقبل من الصلوات الخمس شيء، وبما يقبل من الجمعة شيء، وبما يقبل من رمضان شيء آخر**).

لاحظ هذا المعنىٰ الذي يُقرِّره أبو العباس بن تيمية مربوط بماذا؟ مربوط بقول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة:٢٧].

- هل معنىٰ التقوىٰ أنَّ الإنسان الذي لا يجتنب الكبائر لا يُقبل منه أي ثمن؟ لا، هذا تفسير الخوارج لمعنىٰ الآية.
- هل معنىٰ الآية إذًا: الإنسان الذي يجتنب الشرك يتقبَّل الله منه كل عمل؟ هذا تفسير المرجئة.

إذن ما التفسير الصحيح الذي عليه أهل السنة؟ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٧﴾ [المائدة:٢٧] يعني: من اتقىٰ الله في ذلك العمل المُعيَّن فإنَّ الله يتقبَّل منه ذلك العمل المعين.

لذلك قد يوجد شخص يرتكب الكبائر لكن اتقىٰ الله في عمل معين فيتقبله الله منه، ويوجد شخص آخر خير منه لكن ما اتقىٰ الله في ذلك العمل المعين فلا يتقبَّله الله منه، وإن كان يتقبل الله منه أعمالاً أخرىٰ قد اتقاه فيها.

وما تقوىٰ الله ﷻ في العمل المعين؟

هي شروط قبول العمل:

١- أن يكون خالصاً يريد به وجه الله.

٢- وأن يكون صواباً يتبع فيه سنة النبي ﷺ، هذا تفسير توارد المكفرات، وهذه كفارة سنوية عظيمة.

إذا تأمل الإنسان في معناها اجتهد بإذن الله، ليتَّق الله ﷻ في الاجتهاد في صيامه، لأنه بحسب قبول الصوم تكون قوته في دفع الخطايا ومحو الخطايا وإزالة الصغائر من سجلاته.

ومن المعاني والإشارات في رمضان: (**التعريف القرآني لرمضان**).

القرآن وصف رمضان بوصف في غاية اللُّطف، والحقيقة أنه يستحوذ علىٰ الانتباه، فأي كائن حسي أو معنوي له خصائص ينفرد فيها أو يشتهر بها، ونحن إذا أردنا التعريف العام -يعني: ليس التعريف الذي يجري علىٰ طريقة المناطقة وإنما التعريف العام- إذا أردنا فإننا نختار أخصّ تلك الخصائص ونُعرِّف بها، أو نختار شيئًا شريفًا ونُعرِّف به.

فمثلاً: لنضرب علىٰ ذلك أمثلة: (**الجزيرة العربية**) فيها عسير، فيها نجد، فيها الحجاز، فيها الشمال لكننا إذا أردنا تشريفها تجدنا نقول كلمات من جنس مثلاً: **كيف يحصل هذا في بلد الحرمين**؟ فاخترنا (**الحرمين**) لأن هاتان البُقعتان هما أشرف بقعة فيها فاخترناهما لنعرف بهما هذه المنطقة.

مثال آخر: أبو بكر ﵁ له مناقب كثيرة لكنه سُمِّي «**الصِّدِّيق**»، حتىٰ أنه إذا أُطلق «**الصِّدِّيق**» لا ينصرف إلا له، لماذا اخترنا «**الصِّدِّيقية**»؟ لأنها أشرف منازله، والإنسان نفسه يحب أن ينادىٰ بأشرف أوصافه، والله جل وعلا لمَّا ذكر لنا شهر رمضان عرَّفه لنا بتعريف في غاية اللُّطف، فيقول سبحانه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة:١٨٥].

فانظر كيف اختار الله هذا الشهر ظرفًا لنزول القرآن! كما في الأثر المشهور الذي رواه النسائي في «**السنن الكبرىٰ**» وغيره عن ابن عباس أنه قال: «**نزل القرآن في رمضان جُملةً فكان في السماء الدنيا؛ فكان إذا أراد الله أنْ يُحْدِثَ شيئًا نزل به جبريل**»، يعني: نزل به مُنجَّمًا حسب الوقائع.

وهذا أثر مشهور عن ابن عباس رواه النسائي في «**السنن الكبرىٰ**» وغيره، فانظر كيف جعل الله ﷻ أشرف أوصاف الشهر أنه ظرف زماني لنزول أشرف الكلام مُطلقًا وهو القرآن، هذه لفتة عجيبة صراحة، الله ﷻ يقول: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ﴾ [البقرة:١٨٥]، ثم وصفه أو عرَّفه فقال: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ ﴾ [البقرة:١٨٥].

لِمَ لم يصفه بالمناقب الأخرىٰ؟

لِمَ اختار الله له أنه هو الظرف الزماني لنزول القرآن؟

ضع هذه الآن في ذهنك، ولا يمكن أن تَمُرّ هذه الإشارة القرآنية علىٰ المؤمن ولا يقع في ذهنه هذا الارتباط، ولا يقع في قلبه اختصاص القرآن برمضان، فالقرآن يُقرأ في كل الشهور لكن في شهر رمضان له خاصيّة وفضيلة، لأن شهر رمضان هو الشهر الذي نزل فيه القرآن نفسه، وقد شرف الله ﷻ هذا الشهر.

خُذ أو ضع في ذهنك أيضًا نموذج أو معطىٰ آخر يؤكد هذا:

جبريل عليه السلام كان يُدارِس النبي ﷺ القرآن شهرا في السنة، واختار جبريل عليه السلام شهر رمضان لمدارسة القرآن مع النبي ﷺ، وفي كُل ليلة حتىٰ ينتهي رمضان، ففي الصحيحين من حديث ابن عباس –وهذا لفظ مسلم– «**أن جبريل كان يلقىٰ النبي ﷺ في كل سنة في رمضان حتىٰ ينسلخ** –أي حتىٰ ينسلخ الشهر– **فيعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن**» هذا لفظ مسلم.

وفي لفظ البخاري: «**كان يلقاه في كل ليلةٍ من رمضان فيدارسه القرآن**»، هذان سؤالان الآن لا يمكن أن يُفوِّتهما ذهن المؤمن:

السؤال الأول: لماذا عرَّف الله رمضان بنزول القرآن؟ ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ ﴾ [البقرة:١٨٥].

السؤال الثاني: لماذا اختار جبريل مدارسة النبي ﷺ القرآن كل ليلة من شهر رمضان دون غيره من الشهور؟ لِمَ لم يدارسه في ذي الحجة؟ لِمَ لم يدارسه في المُحرَّم؟

لِمَ اختار شهر رمضان لمدارسة القرآن وفي كل ليلة منه؟.

إذا تأمَّل المؤمن هذين السؤالين امتلأ انبهاراً ودهشةً من منزلة القرآن في شهر رمضان، وأن رمضان ليس شهر الصيام، تجدنا أحيانًا كثيرة نقول شهر رمضان وشهر الصيام ونربط في أذهاننا رمضان بالصيام وهذا صحيح؛ لكن ليس هذا فقط، بل الحقيقة أن رمضان هو شهر الصيام والقرآن.

رمضان له اختصاص بالقرآن، فإن الله ﷻ عرَّفه لنا بأنه ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ [البقرة:١٨٥] وجبريل اختار لمدارسة القرآن مع النبي ﷺ كل ليلة في شهر رمضان.

والأخبار المنقولة عن السلف التي نقلها مثل ابن رجب في «**لطائف المعارف**» وغيره ممن كتب في فضائل شهر رمضان، ينقلون شدة اجتهاد السلف في ختمات القرآن في رمضان، فتجدهم يختمون في رمضان أكثر من غيره، أو يُقبِلون علىٰ القرآن ويتركون ما سواه، بل حتىٰ تجدهم أحيانًا يتركون بعض أمور العلم -العلم الشرعي- ويقبلون علىٰ قراءة القرآن في رمضان.

هذه الأخبار المنقولة عن السلف تؤكد عُمق علم السلف ودقة نظرهم، بل إن لديهم حساسية شديدة لإشارات النصوص ثم العمل بها، هذه إشارة لا يمكن أن تفوت علىٰ الإنسان، وهو: أن الله ﷻ نبَّه علىٰ أن شهر رمضان هو الظرف الزماني لنزول القرآن وشرَّفه بذلك وعرَّفه بذلك.

ومن المعاني والإشارات التي جاءت أيضًا في النصوص الشرعية عن شهر رمضان:

ما يمكن تسميتها (**المعدودية**)، فبعض الأوصاف التي ذكرها الله ﷻ في كتابه عن شهر رمضان تدخل المسلم مشاعر ممتزجة؛ أحاسيس متزاحمة من الشغف؛ الإدراك؛ الإشفاق من سرعة التقضِّي، فقد قال ﷻ عن شهر الصيام: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ [البقرة:١٨٣-١٨٤].

لماذا قال الله ﷻ ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾؟ الأيام المعدودات هنا طبعًا هي شهر رمضان، الآية مُحكمة، ليس المراد بالأيام المعدودات هي بقية الأيام التي وردت في الأحكام المنسوخة، المراد بالأيام المعدودات في أصح أقوال العلماء في تفسير هذه الآية أنها شهر رمضان.

الأصل في ذكر العدد أنه يُراد به بيان أن الأمر مُقدَّر أو مُحدَّد، فتجد أنك تقول: هذا شيء معدود يعني: أنه مُحدَّد ومُقدَّر، لكن الله ﷻ لما قال عن رمضان ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ صحيح أن الأصل أن يكون المعنىٰ محدداً معلومًا لكن ها هنا قدر زائد دلَّ عليه السياق وهو: أن المقصود التقليل، ﴿ أَيَّامًا

﴿ مَّعۡدُودَٰتٖ ﴾ يعني: قلائل، أيام قلائل؛ كما قال الله ﷻ في الآية الأخرىٰ: ﴿ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ ﴾ [يوسف:٢٠]، يقصد فيها أنها محددة ومقدرة؟ لا، يقصد فيها أنها إيش؟ دراهم قليلة.

ولماذا اُختيرت كلمة (معدود) للإشارة للقلة؟ لأن القليل هو الذي يُعدّ، هناك علاقة عقلية أن القليل هو الذي يُعد، أما الكثير فتجد الكثير غالبًا يُحثىٰ حثيًا أو يُصبّ صبًا.

إشارة القرآن إلىٰ أن شهر رمضان أيام معدودات: يُنبِّه المسلم علىٰ ضرورة الاهتمام بكل ساعات هذا الشهر، لأنها أيام معدودات، كل هذا الشرف؛ هي أيام معدودات.

ومن المعاني أيضًا والإشارات التي جاءت في النصوص الشرعية حول هذا الشهر الكريم: (**العلاقة بين شرف العمل والزمان**).

أركان الإسلام خمسة ومنها الصلاة والصيام والزكاة والحج، لماذا اختار الله هذا الركن الذي هو الصيام في هذا الشهر شهر رمضان؟

لماذا هذا الركن لم يكن في شهر آخر؟

الشارع يُشرِّف الأزمان الفاضلة بالصيام فيها، فيتشرف الزمن بالصوم؛ ويزيد ثواب الصوم بشرف الزمن، وهذا له نظائر في الشرع، يعني: هناك علاقة بين شرف الصيام وشرف الزمان الذي هو رمضان.

من ذلك مثلا: أن اليوم الذي ولد فيه النبي ﷺ هو زمان فاضل في نفسه، والزمن الذي بعث فيه النبي ﷺ هو زمن فاضل في نفسه، ولذلك في صحيح الإمام مسلم من حديث أبي قتادة الأنصاري أن النبي ﷺ سُئل عن صوم يوم الإثنين، فماذا كان جوابه ﷺ ؟.

قال: «**ذاك يوم وُلدت فيه ويوم بعثت أو أُنزل علي فيه**» النبي ﷺ لما سُئل عن صيام يوم الاثنين -هذا في صحيح مسلم- أشار إلىٰ مُناسبة شريفة وهو: يوم ولادته ﷺ ويوم بعثته أو إنزال القرآن عليه فيه، وأيُّ شيء أشرف من ذلك؟ المنة علىٰ الخلق بشموخ وشروق شمس الرسالة المحمدية هي أعظم النعم، شمخت الجبال بهذا الوحي العظيم، والناس أحوج إلىٰ شمس الرسالة المحمدية من الطعام والشراب والنفَس والضوء وكل الاحتياجات البشرية، فانظر كيف كان أنسب شيء لشرف هذا الزمن؛ هو الصيام، فالنبي ﷺ لما سئل عن صيام يوم الاثنين قال: «**ذاك يوم بُعثت فيه**».

ومن ذلك أيضًا «عاشوراء»: «**عاشوراء**» يوم فاضل كما في الصحيحين من حديث ابن عباس وهذا لفظ مسلم: (**أن رسول الله ﷺ قَدِمَ المدينة فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء فقال لهم رسول الله ﷺ: ما**

هذا اليوم الذي تصومونه؟ فقالوا: «هذا يوم عظيم أنجىٰ الله فيه موسىٰ وقومه، وغَرِقَ فرعون وقومه؛ أو وغرَّق فرعون وقومه، فصامه موسىٰ شُكرا فنحن نصومه، فقال رسول الله ﷺ: فنحن أحق وأولىٰ بموسىٰ منكم، فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصيامه»، فلاحظ هذا الزمن «يوم عاشوراء» زمن فاضل؛ فيه نعمة من الله ﷻ؛ صامه موسىٰ شُكرا، وصامه النبي شكرا، هذا يعني ماذا؟ يعني: أن الزمن الفاضل يشرفه الله ﷻ بالصيام، وأن الصيام يتشرف أيضـًا بالزمان الفاضل. هذه بعض المعاني والإشارات، وهذا هو المجلس الأول الذي نتناول فيه «**المغزىٰ الرمضاني**».

وأسأل الله ﷻ أن يُبهج قلوبنا وإياكم بإدراك هلال رمضان، وأن يشرفنا بصيام نهاره، وأن يُغدق علينا من رحمات قيام لياليه، وأن يجعل أنيسنا في كل ساعات هذا الشهر الكريم آيات كتابه ﷻ، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المجلس الثاني

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، ثم أما بعد:-

كنا تناولنا في المجلس الأول بعض المعاني والإشارات الرمضانية، وكنا نبحث ونتدارس مغزاها ودلالاتها، فمررنا مثلاً من المعاني السابقة في المجلس الأول: مررنا بـ«**الكفارة السنوية الرمضانية**».

- وأيضًا تفسير توارد الكفَّارات أو المُكفِّرات اليومية والأسبوعية والسنوية.
- وأيضًا تناولنا كيف عرَّف القرآن رمضان؟ وكيف وصفه بأخصّ الخصائص؟ أنه شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن.
- وتناولنا معدودية رمضان.
- وأيضًا أشرنا إلىٰ العلاقة بين شرف العمل وشرف الزمان.

سنتناول في هذا المجلس الثاني من مجالس «**المغزىٰ الرمضاني**» إشارات أخرىٰ وهما إشارتان:

الإشارة الأولىٰ: هي «**أسرار الإضافة الإلهية**».

والإشارة الثانية: يمكن تسميتها «**ما بعد السبعمائة أو ما فوق السبعمائة**».

في كل الشعائر العظيمة جاءت نصوص شرعية جليلة في فضلها وثوابها ومنزلتها عند الله ﷻ، لكن جاء في عبادة الصيام فضيلة ومنقبة وتعبير عن منزلة الصوم لم يأتي مثله في كل العبادات الأخرىٰ؛ حتىٰ إنه من فرادة هذا التعبير حارت في تفسيره أنظار كثير من العلماء وهي قوله ﷺ في الصحيحين: «**كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**» .

ما المراد بهذا المعنىٰ؟

ما المراد بكون كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لله ﷻ؟

يعني: هل المراد أن الصوم هو العبادة الذي يُعمل لله؟ طبعًا أكيد هذا معنىٰ مُستبعد لأن كل العمل الصالح يُعمل لله وإلا لبطل.

طيِّب؛ هل المراد أن الأعمال الصالحة يقع للعبد فيها نوع انتفاع أو ثواب دنيوي؟ يعني: مثلاً الصلاة والمناسك حركة ينتفع بها البدن، الزكاة تُطهِّر المال وتُنمِّيه، بخلاف الصوم مثلاً فإنه فقط «لله» يعني: ليس فيه أي نوع من الحظ الدنيوي؟ لا يمكن أن يكون هذا هو المعنىٰ؛ لأن الصوم ينتفع به البدن فهو من جنس الحِمية؛ من أعظم الانتفاع مثلاً البدني للصوم أنه يطرد السموم من البدن، هو كغيره من أصناف العبادات التي يقع فيها نوع انتفاع للعبد في الدنيا.

طيِّب؛ هل المراد أن الصيام لمَّا قال الحق تبارك وتعالىٰ -هذا حديث قدسي- الله ﷻ يقول: **«كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به»** إذًا: هل المراد أن الصيام هو الذي يجزي به الله لأنه قال: **«وأنا أجزي به»**؟ هل المراد هو الذي يجزي به؟ لا طبعًا، لا يمكن أن يكون هذا المعنىٰ لأن كل العبادات والأعمال الصالحة الله ﷻ هو الذي يجازي عليها؛ لا اختصاص بمسألة كأصل الجزاء.

هل المراد أن الصيام أفضل الأعمال لأن الله يقول: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به»؟ هل هذا دليل علىٰ أن الصوم أفضل الأعمال؟ أيضًا لا يمكن أن يكون هذا الجواب؛ لماذا؟ لأنها تواطأت واستفاضت النصوص علىٰ أن الصلاة هي أفضل الأعمال، **«واعلموا أن أفضل أعمالكم الصلاة»**.

طيِّب؛ هل المراد أن كل الأعمال الصالحة الأخرىٰ وقع أنه عُبد بها غير الله؟ يعني: فسُجد للأوثان وطِيف علىٰ الأضرحة وتُصدِّق للطواغيت لكن لم يقع مثلاً الصوم لغير الله، هل هذا هو المعنىٰ في هذا التقابُل أنه «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي» هل هذا هو المعنىٰ؟

أيضًا لا يمكن أن يكون هذا المعنىٰ لأن الثابت في تاريخ الملل والنحل أن الصابئة أصحاب الكواكب والهياكل كانوا يصومون لها، إذًا ما المعنىٰ؟ ما معنىٰ **«كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به»**؟

وهذا حديث عظيم، يعني: العلماء حينما يتناولون الصيام يُعظِّمون شأن هذا الحديث لأنه واضح فيه الكناية عن تعظيم شأن الصيام، حتىٰ أن الإمام البخاري لما استفتح **«كتاب الصوم»** وضع هذا الحديث في بدايات الكتاب، والإمام ابن رجب لما كتب كتابه **«لطائف المعارف»** كان يضع فصول لكل موسم من مواسم العام فيه العبادات يضع له فصل، الفصل الذي وضعه للصيام أول شيء افتتح به هو هذا الحديث، وذكر الأقوال الممكنة في تفسير هذا الحديث.

فما معنىٰ قول الحق تبارك وتعالىٰ في الحديث القدسي: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به»؟ ما معنىٰ وما مُراد الله ﷻ بهذا التقابل؟

في القرن السابع كان فقيه الشافعية المشهور «**أبو الخير الطالقاني**» وهو من علماء القرن السادس لأنه توفي سنة ٥٩٠ وهو مولود في قزوين لكنه قدم إلىٰ بغداد وصار مُقدَّم الشافعية في بغداد وشيخهم وإمامهم وكان يعظ ويخطب ويدرِّس في بغداد وله قصة معروفة مشهورة رواها عنه أبو أحمد بن سُكينة أنه قال: لما أظهر ابن الصاحب -يقصدون فيه: هبة الله مجد الدين بن الصاحب- لما أظهر الرفض ببغداد لأنه كان والي، يقول أبو أحمد هذا: أنه جاءني القزويني ليلاً فودّعني وذكر أنه مُتوجِّه إلىٰ بلاده -سيرجع من بغداد وهو المُعظَّم من أئمة الشافعية في بغداد؛ وبغداد دار العلم؛ وأخبرهم أنه سيرجع إلىٰ قزوين- فقال له أبو أحمد: أنت ها هنا يا أبا الخير ينتفع بك الناس كيف تذهب إلىٰ قزوين؟ فقال: معاذ الله أن أُقيم ببلدة يُجهر فيها بسبِّ أصحاب رسول الله ﷺ، ثم خرج من بغداد إلىٰ قزوين، فكان هذا آخر العهد به، هذه القصة ينقلونها الشافعية في طبقات التي يترجمون فيها لأئمتهم.

«**أبو الخير الطالقاني**» هذا ألَّف كتاب اسمه «**حظائر القدس**» يتضح من ذلك أنه ألَّفه علىٰ الاستقصاء وذكر فيه معاني؛ يعني: منها مثلاً: أنه ذكر لرمضان ستين قولاً؛ وتعرَّض لهذا الحديث وما هو معناه، ما معنىٰ قول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالىٰ أن الله تعالىٰ قال: «**كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**»؟.

فأخذ يستقصي «**أبو الخير الطالقاني**» هذا كل ما ورد عن أهل العلم من قولٍ في تفسير هذا الحديث حتىٰ أوصلها إلىٰ خمسٍ وخمسين قولا، وطبعـًا قد يستغرب البعض من وصولها إلىٰ هذا العدد، والحقيقة ذكر وتعديد الأقوال له **انعجام** عند أهل العلم:

المنهج الأول: هو منهج التحصيل.

والمنهج الثاني: هو منهج التفصيل.

منهج التحصيل: هو الذي يتأمل القدر المشترك بين الأقوال ويُرجع حاصلها إلىٰ قولين ثلاثة أربعة.

منهج التفصيل: هو الذي لا يُراعي القدر المشترك، لا يُراعي اتِّحاد الجهة، أي اختلاف في جهة من الجهات يُشعِّب التفصيل ويذكره قولاً، وهذا كثير، يعني: مثلا ابن حجر لما تعرَّض لـ«ساعة الإجابة يوم

الجمعة» بلغت أربعين قولاً أو ثلاثة وأربعين قولاً، وكثير من هذه الأقوال تتداخل، لكن هذا منهج في عدِّ الأقوال وذكر الأقوال.

علىٰ أيّة حال «**أبو الخير الطالقاني**» بلغت عنده خمسة وخمسين قولا، وقد تحدث العلماء عن كتابه هذا وعن الأقوال التي ذكرها، وذكر ابن حجر أيضًا في «**الفتح**» لما تعرَّض قال: أن أبا الخير ذُكر أنه بلغت عنده أعداد كبيرة معنىٰ تفسير هذا الحديث لكنه ذكر ابن حجر أنه لم يقف ذلك، ثم جاء السيوطي لاحقًا ونقل كلام ابن حجر وذكر أنه وقف علىٰ الكتاب، أشار له في حواشيه علىٰ السُنن لكن نقل منه صراحة في حاشيته علىٰ «سنن ابن ماجة»، فهذا الكتاب أبو الخير الطالقاني وهذه هي الأقوال تقريبًا التي وصلت إلىٰ خمس وخمسين قولا.

نحن لن نتتبع هذه الأقوال، يعني ربما ذكر ابن حجر منها عشرة وناقشها وذكر كل قول ودليله وما يعضده وما يعارضه، نحن سنختار الأقوال الأساسية التي هي الأقوال الثلاثة المروية عن أئمة السلف، هذه المنقبة والفضيلة العظيمة جدا لشهر رمضان التي لم ترد في أي عبادة أخرىٰ، قولان مرويان عن الإمام سفيان بن عيينة؛ وقول ذكره الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام أحد كبار أئمة الحديث والسنة في عصره؛ ذكره في كتابه «**غريب الحديث**».

القول الأول: هذا قول سفيان بن عيينة الأول: أن كل الحسنات توفّىٰ منها مظالم العباد يوم القيامة ويُقتصّ منها إلا حسنات الصيام.

فقد روىٰ البيهقي في «**السنن الكبرىٰ**» قال: عن أيوب بن حسَّان الواسطي قال: سمعت رجلاً سأل سفيان بن عيينة فقال: يا أبا محمد ما يرويه النبي ﷺ عن ربه ﷻ أنه قال: «**كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**»، يعني: واضح أنه يسأل عن معنىٰ هذا الحديث، فقال ابن عيينة: (**هذا من أجود الأحاديث وأحكمها** -يعني: أنه ليس فيه إشكال في معناه- **إذا كان يوم القيامة يحاسب الله ﷻ عبده ويؤدِّي ما عليه من المظالم من سائر عمله**، يعني: **يقتص من حسناته كلها ليوفِّي فيها مظالم العباد إلا الصوم، فيتحمَّل الله عن العبد ما بقي عليه من المظالم ويُدخِلُه بالصوم الجنة**).

يقول سفيان: أن هذا هو المعنىٰ؛ أن الحسنات كلها للعبد يوفّىٰ منها مظالم العباد له إلا الصوم فإنه يتحمَّل الله ﷻ تلك المظالم عن العبد ويُدخِلُه بالصوم الجنة، فهذا هو المعنىٰ الذي كان يراه سفيان بن عيينة، **ما مدىٰ قوة هذا القول أو هذا التفسير أو هذا التوجيه؟** هذا القول له قوة، فالبخاري روىٰ في

صحيحه حديث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ عن الله جل وعلا قال: «**لكل عملٍ كفارة والصوم لي وأنا أجزي به**».

فهذا يوحي أن الصوم لم يدخل في الحسنات التي توفَّىٰ بها مظالم العباد، وإن كان ليس هنا استثناء، لم يقل الله (لكل عمل كفارة إلا الصوم) لكنه ورد في الروايات الأخرىٰ لكن الذي في الصحيح كافي، هذا واضح فيه الاستثناء أن الصوم لم يدخل فيما سبق.

قال القرطبي رَحَمَهُ اللَّهُ عن هذا القول: قد كنت أستحسن هذا الجواب إلىٰ أن فكَّرت في حديث المُقاصَّة فوجدت فيه ذكر الصوم في جملة الأعمال المذكورة، «**حديث المُقاصَّة**» تعرفونه الذي هو «**حديث مَنْ المفلس**» لمَّا قالوا: يا رسول الله من المفلس؟ فقال: «**المفلس الذي يأتي يوم القيامة بصلاة وصدقة وصيام ويأتي وقد شتم هذا وضرب هذا وأكل مال هذا** -وفي الحديث- **فيؤخذ لهذا من حسناته ولهذا من حسناته فإذا فنيت حسناته قبل أن يُقضىٰ ما عليه أخذ من سيئاتهم فطُرحت عليه ثم طُرح في النار**» القرطبي كان يقول: ظاهر هذا الحديث أن الصيام اشترك مع بقية الأعمال، هذا يعني أن الصيام لم ينفرد في أن حسنات الصيام لا توفىٰ بها مظالم العباد ولا يقتص بها لمظالم العباد، هذا يُشكل علىٰ قول سفيان بن عيينة.

القول الثاني: أيضًا مروي عن سفيان بن عيينة قال: (كل الأعمال كُشف للعباد فيها مقدار التضعيف إلا الصوم فإن ثوابه انفرد الله بمعرفته)، وهذا أيضًا قول وتوجيه قوي؛ لكن له معنىٰ أو يتصل بفقرة أخرىٰ سنتعرض لها بعد قليل، هذان قولان مرويان عن الإمام سفيان بن عيينة.

القول الثالث قاله الإمام أبو عُبيد -وهو من أهل الحديث وله خبرة باللغة في كتابه «**غريب الحديث**» وهو من أقوىٰ الأقوال وأجود الأقوال-: أن معنىٰ هذا الحديث أن الصوم هو أقرب الأعمال للخلوص من الرياء، كيف؟ الآن عامة الشعائر والأعمال الصالحة تكون بفعل الجوارح، يعني: الآن لما يريد الإنسان أن يصلي؛ يسجد يركع تكون بفعل الجوارح، يريد أن يقوم بالمناسك عمرة حج يكون فيها طواف وسعي والوقوف بعرفة، كله يكون فيها أعمال بالجوارح، يريد أن يتصدق يمد يده، يخرج من ماله فيرىٰ الناس هذا العمل بفعل الجوارح فيكون مظنة لالتفات القلب إلىٰ الناس لتسرُّب شيء من الرياء، الأعمال تكون بهذه الأفعال والأقوال، لكن الصوم إمساك، مجرد الفعل نفسه لا يعلم الناس فيه أنك في عبادة ما لم تخبرهم، لكن مجرد الفعل نفسه ليس فيه رياء، لذلك الله ﷻ قال في هذا الحديث القدسي «**إلا الصوم فإنه لي**» يعني: أنه أقرب الأعمال للخلوص من الرياء هو الصوم، حتىٰ كان أبو عبيد يقول: (**الأعمال كلها لا**

تكون إلا بالحركات إلا الصوم خاصة، الصوم لا يظهر من ابن آدم بلسان ولا فعل)، وكانوا يقولون أيضًا في تقرير هذا المعنىٰ: (**حال المُمْسِك شَبَعًا مثل حال المُمْسِك تقرُّبًا**).

يقصدون: في الصورة الظاهرة، حال الممسك شبعا مثل حال الممسك تقربا، لأن الإنسان قد يمسك عن الطعام مثلا لشِبَع أو يريد مثلاً أن يبتعد عن التُّخمة، لحمية، لفقر وفاقة، فأسباب الإمساك عن الطعام كثيرة فلا يتطرَّق للناس والقريبين والمشاهدين أن هذا صائم، لكن المصلي يتَّضح، المعتمر، الحاج، المتصدق يتَّضح، هذا هو القول الثالث وهو قول أبو عُبيد وهو أقوىٰ الأقوال.

هذه هي الثلاثة الأقوال في مسألة تفسير هذه الفضيلة والمنقبة العظيمة لعبادة الصيام التي نحن مُقبلون عليها الآن، نحن مقبلون يا إخوان علىٰ هذه العبادة التي قال الله جلَّ وعزّ عنها في هذا الحديث القدسي منقبة وفضيلة ما جاءت لأي عبادة أخرىٰ أن الله يقول: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي».

يضيفه الله جلَّ وعلا إلىٰ نفسه، لذلك إذا تذكَّر العبد قول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة:٢٧]، اجتهد في أن يتّقي الله في صيامه لأنه بقدر تقوىٰ العبد لله ﷻ في هذا الصيام بقدر ارتفاع درجة هذا الصوم عند الله ﷻ، فبقدر ما يُحصِّل من هذه الفضيلة العظيمة حين أضاف الله ﷻ هذا الصيام إلىٰ نفسه، هذه هي المسألة الأولىٰ التي نتناولها في هذا «**المجلس الثاني**» من مجالس «**المغزىٰ الرمضاني**».

المسألة الثانية هي: -التي اتفقنا قبل قليل علىٰ أن نُسميَها- «ما بعد السبعمائة».

القاعدة في تضعيف ثواب الأعمال: أنها تكون من عشر حسنات إلىٰ سبعمائة حسنة، هذا من كرم الله ﷻ الجواد جلّ وعلا أنه يضاعف للعباد الحسنات، يعمل الإنسان عمل صالح فيضاعفه، مثلاً قال الله ﷻ في التضعيف العشري: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠]، يعمل الإنسان العمل فيضاعفه له جلّ وعلا إلىٰ عشرة أضعاف، جاء في التضعيف إلىٰ السبعمائة قول الله ﷻ في مَثَلٍ من أمثال القرآن وطريقة القرآن في التعبير وفي الدلالة هي: ضرب الأمثال؛ قال الله ﷻ: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة:٢٦١].

الله جلّ وعلا يضاعف للعباد من الحسنة الواحدة يضاعفها من عشر إلىٰ سبعمائة حسنة، أما الصيام فإنَّ الله ﷻ أخفىٰ عنا مقدار التضعيف، وهذه والله منزلة عظيمة جدا، يمتلئ القلب دهشة وانبهار لهذه العبادة العظيمة، في الحديث في الصحيحين وهذا لفظ مسلم: **أن النبي ﷺ قال فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالىٰ**: «كل عمل ابن آدم يُضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف»، «قال الله ﷻ إلا الصوم

فإنه لي وأنا أجزي به» فعبادة وعدنا الله جل وعلا أنه يضاعفها لنا إلىٰ ما فوق السبعمائة ضعف، اليوم الواحد نصومه أجره أكثر، ليس فقط مثل، أكثر من أجر صيام سبعمائة يوم، هذا ثواب عظيم، الله ﷻ لم يبين لنا مقدار التضعيف لِمَ؟ ليدلنا علىٰ أن الأنباء الواسعة فسيحة لمضاعفة الثواب لا تُحصر ولا تعد وهو الكريم سبحانه.

هذا الذي يقوله الكريم الجواد سبحانه؛ الذي ضاعف بقية الأعمال من عشر حسنات إلىٰ سبعمائة ضعف، ولماذا؟ أهل العلم يلتمسون أن معنىٰ هذا هو بسبب أن الصوم أصله هو عبادة الصبر، والله ﷻ يقول: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ١٠﴾ [الزمر:١٠].

بغير حساب؛ شعيرة الصوم هي عبادة الصبر فأجرها بغير حساب، بل كان أهل العلم إذا تكلَّموا عن تفسير هذه الآية جعلوها هي عبادة الصوم، وقد تكون أيضًا هي من باب ضرب الأمثال، لأن تفسير السلف كثير منه علىٰ طريقة ضرب الأمثال.

فنحن الآن مُقبلون علىٰ عبادة عظيمة أضافها الله إلىٰ نفسه، فقال: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به» وأخبرنا الله ﷻ الجواد أن تضعيف ثواب هذه العبادة يتجاوز السبعمائة ضعف، فقال: «كل عمل ابن آدم يُضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به»، فالله الله يا إخوان ألا تفوتنا هذه العبادة العظيمة، ألا يفوتنا أن نتقي الله في الصيام، فالله ﷻ يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ٢٧﴾ [المائدة:٢٧].

أسأل الله ﷻ أن يبلغنا وإياكم شهر الصيام؛ وأن يعيننا علىٰ أن نتقي الله في هذا الصيام وأن نصومه إيمانًا واحتسابًا، والله أعلم وأحكم وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.



المجلس الثالث

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، وأرحب بكم مجددا أيها الإخوة الفضلاء ونواصل بإذن الله المجالس التي اتفقنا أن نسميها: «**المغزىٰ الرمضاني**».

قد سبق لنا في المجلسين السابقين أنْ تناولنا:

- الكفارة السنوية وأن رمضان كفارة سنوية.
- وتفسير توارد المكفرات.
- ونمط التعريف القرآني للصيام.
- ومعدودية رمضان.
- والعلاقة المُتبادلة بين شرف العمل وشرف الزمان.
- وتناولنا أيضـًا: أسرار الإضافة الإلهية للصيام في الحديث القدسي الذي قال الله ﷻ فيه: «**كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**».
- توقفنا أخيراً عند تلك المنقبة العظيمة وهي: ما فوق السبعمائة من الثواب للصيام.

نُكمل اليوم بإذن الله في هذا المجلس الثالث ونتناول فيه أربع إشارات ومعطيات نتدارس وإياكم معناها ودلالاتها ومغزاها، أيضـًا هي تتعلق بشهر رمضان وهي:

١- خصوصية المدخل في الجنة.

٢- ومشهد الإغلاق.

٣- وأمارة التأهُّب.

خصوصية المدخل في الجنة: المؤمنون جميعـًا إن شاء الله يعملون العمل الصالح يريدون به الوصول إلىٰ الجنة والسلامة من النار، طريق ذلك: هو العمل الذي هو شعب الإيمان، فهذه الأعمال الصالحة من شُعب الإيمان كما أخبرنا النبي ﷺ في الصحيحين من حديث أبي هريرة أنه قال: «**الإيمان بضع وستون شعبة**» وهذا لفظ البخاري، وبالمناسبة «**البخاري**» اختار هذا اللفظ؛ فيه اللفظ الآخر الذي هو «**بضع وسبعون شعبة**» وهذا في صحيح مسلم -لفظ مسلم- اختاره البخاري لسبب إسنادي دقيق في اختلاف

الرواة علىٰ «**عبد الله بن دينار**»، حتىٰ أن ابن حجر لما ناقش الاختيار قال: (**وبهذا يتبين شفوف نظر البخاري**)، وهي مسألة إسنادية جاء الكلام عنها عَرَضـًا وليس هذا موضع استعراضها ويمكن مَنْ يريد الاستزادة الرجوع إلىٰ شروحات الصحيح.

العلماء رحمهم الله تنافسوا في عدِّ شُعَب الإيمان، النبي ﷺ يقول: «**الإيمان بضع وستون شعبة**» فما هي هذه الشعب؟ تنافسوا في تأليف مؤلفات، كان من أوائل من ألّف فيها أحد أئمة الشافعية اسمه: «**أبو عبد الله الحَليمي**» وقد كتب فيها كتابـًا جيداً لكنه علىٰ طريقة الفقهاء، عقد فيه الأبواب واستعرض الشُعب وتكلَّم أيضـًا في مداخل عن بعض معاني الإيمان وإن كان داخلَه شيء من التمشعُر.

لكن جاء بعده «**البيهقي**» وأثنىٰ ونوّه بكتاب «**الحليمي**» وسار علىٰ طريقته بصورة عامة لكنه صاغه علىٰ طريقة أهل الحديث بالأسانيد، عقد تلك الأبواب في شُعب الإيمان وساق أحاديثها وآثارها بالأسانيد؛ وهو أوعب كتاب رأيته؛ وفيه عجائب الحقيقة من الأحاديث والآثار والأسانيد؛ كتاب البيهقي هذا الذي هو «**شعب الإيمان**».

هذه الشعب الإيمانية كلها طرائق إلىٰ الجنة ودروب إلىٰ دار السلام، وهذه الجنة التي يريد المؤمنون الوصول إليها لها أبواب، فأخبرنا الشارع أن أبوابها ثمانية؛ كما في الصحيحين من حديث سهل بن سعد عن النبي ﷺ أنه قال: «**في الجنة ثمانية أبواب**».

وهذه الأبواب جاء في النصوص الشرعية شيء من الحديث عن:

- صفاتها.
- وفتحِها.
- والملائكة الذين عليها.

وهي أخبار تُحرِّك قلب المؤمن للقاء الله والدار الآخرة.

فمثلاً من الأحاديث التي جاءت؛ ونحن في هذه الدنيا: أنها تُفتح أبواب الجنة يوم الإثنين والخميس، من باب حث المؤمنين علىٰ الأعمال الصالحة كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أنه قال «**تُفتح أبواب الجنة يوم الإثنين ويوم الخميس فيُغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا إلا رجلا كان بينه وبين أخيه شحناء، فيُقال أنظروا هذين حتىٰ يصطلحا، أنظروا هذين حتىٰ يصطلحا، أنظروا هذين حتىٰ يصطلحا**».

وأما في الآخرة: فأول من يفتح له باب الجنة فهو رسول الله ﷺ حين يطرُق باب الجنة -كما في صحيح مسلم- من حديث أنس بن مالك أن النبي ﷺ يقول: «**آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول خازن الجنة: مَنْ أنت؟ فأقول: محمد؛ فيقول: بك أُمرت ألا أفتح لأحد قبلك**» وأما المؤمنون بعد رسول الله ﷺ فإنهم إذا أتوا إلىٰ هذه الأبواب:

- تفتحها الملائكة.
- وتستقبلهم الملائكة.
- وتحييهم بسلامة الوصول كما قال الله ﷻ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزمر:٧٣].

هذه تحية الملائكة للمؤمنين الذين عملوا بهذه الشعب الإيمانية العظيمة حتىٰ بلغوا أبواب الجنة.

نحن نُريد اليوم أن نتأمّل العلاقة بين شُعب الإيمان التي هي دروبٌ وطرائق إلىٰ الجنة ودار السلام وبين أبواب الجنة، أبواب الجنة ثمانية وشعب الإيمان بضع وستون.

الله ﷻ اختار لهذه الأبواب أسماء من أشرف هذه الشعب الإيمانية، أمهات الطاعات اختار أن تكون هذه الأبواب مُسمَّاة باسمها، فكل طاعة وعبادة سمي باسمها بابٌ من أبواب الجنة؛ صار هذا دَلالة علىٰ تشريف تلك العبادة، لا يمكن أن يختار الله ﷻ لبابٍ من أبواب الجنة اسم من أسماء العبادات ولا يكون هذا شرف لها.

اليوم مثلا نحن ننظر في الأبواب التي توجد مثلا في المساجد التي تُسمَّىٰ بأسماء الملوك السلاطين يتشرَّفون بذلك؛ فكيف بأبواب الجنة التي تُسمَّىٰ بأسماء العبادات؟ بغض النظر طبعـًا عن شرعية تلك الأسماء من عدمها، نحن نتكلم في قياس فقط ليُقرِّب الصورة إلىٰ الفضائل المرتبطة بالتسميات.

تُفتح هذه الأبواب عند وصول المؤمنين كما قال الله ﷻ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزمر:٧٣] وكل بابٍ من هذه الأبواب سمي باسم من أمهات الطاعات، وكان هذا أيضـًا تشريف له، هذه الأبواب الذي نجزم بأسمائه؛ خمسة أسماء لهذه الأبواب وهي التي جاءت في الصحيحين، جاء للثلاثة المتبقية أسماء أخرىٰ لكنها خارج الصحيحين وفيها كلام في أسانيدها.

من هذه الأسماء الأربعة أن النبي ﷺ قال في الحديث السابق: «**فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الريَّان، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة**» هذه الآن أربعة أسماء.

باب الصلاة، باب الجهاد، باب الريَّان، باب الصدقة، فاسمٌ لعبادة الصلاة واسمٌ لعبادة الجهاد واسمٌ لعبادة الصدقة واسمٌ لعبادة الصيام.

الاسم الخامس: هو الذي جاء في الصحيحين في حديث الشفاعة أنه يقال للنبي ﷺ «**يا محمد ارفع رأسك وسل تُعطىٰ واشفع تشفع، فيقول النبي ﷺ: أرفع رأسي وأقول: يا رب أمتي أمتي فيقول: يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة؛ وهم شركاء الناس فيما سوىٰ ذلك من الأبواب**».

فهذه صفة الباب الخامس التي نعرفها من حيث المعرفة أقصد التي هي: **بابٌ للمؤمنين الذين لا حساب عليهم ولا عذاب**، أما أسماء الأبواب الأخرىٰ الثلاثة فقد جاءت خارج الصحيحين إشارات لها.

يعني مثلا في كتاب «**صفة الجنة**» لابن أبي الدنيا روىٰ أن أحد الأبواب هو «**باب للواصلين**» يعني: أصحاب صلة الرحم، يعني عبادة من أعظم العبادات، وجاءت أسماء أخرىٰ وفي المسند أن النبي ﷺ قال: «**لكل أهل عمل بابٌ يُدعون بذلك العمل**»، لكن عامة هذه الأحاديث الحقيقة إما مراسيل أو موقوفات أو أحاديث ضعيفة قد لا يكون الإشكال في إسنادها لكن ليس فيها دلالة علىٰ تسمية الباب، يعني تذكر أن هذا العمل باب للجنة لكنه ليس صريحـًا في أنه هو اسم الباب.

فهذه التسمية الآن تسمية «**باب الريان**» تخصيص باب من أبواب الجنة للصائمين لا شك أنه شرف ومنزلة عظيمة لعبادة الصيام، فالإنسان إذا كان في حال الصيام في الظهر، في العصر ينتظر الإفطار، يتسحَّر ليصوم، **ليتذكَّر أن الله ﷻ خصَّص بابـًا من أبواب الجنة الثمانية لهذه العبادة.**

بالله -يا إخوان- كيف سيكون أثر هذا التصوُّر؛ وأثر هذا الاستشعار علىٰ نفس المؤمن وهو يصوم ويتذكَّر أن الله ﷻ خصَّص بابـًا من أبواب الجنة للصائمين؟ ومعنىٰ تخصيص الباب للعبادة:

- إما أن تكون هذه العبادة غلَبت علىٰ المؤمن وأكثر منها.
- أو أن يكون من اتقىٰ الله ﷻ في هذه العبادة وأتىٰ بها بكمالها؛ فيكون من أهل هذا الباب.

ننتقل الآن إلىٰ معنىٰ آخر أو إشارة أخرىٰ وهي التي ذكرنا قبل قليل عنوانها وهي: «فرادة التسمية».

لعلكم لاحظتم أن كل الأبواب التي جاءت أسمائها في الصحيحين قبل قليل سُميت باسم ذلك العمل إلا الصوم، كل الأعمال سميت باسم العبادة، باب الصلاة سميت بعبادة الصلاة، باب الجهاد عبادة الجهاد، باب الصدقة عبادة الصدقة، إلا ماذا؟ إلا باب الصيام ما سُمِّي باب الصيام، سُمِّي «باب الريَّان» وإن كان جاء في آثار أخرىٰ أنه سُمِّي «**باب الصيام**» لكنه أيضاً سُمِّي «**باب الريَّان**»، فهذه فرادة في التسمية، وهذه الفرادة لها دلالات.

أُعيد عليكم الحديث السابق قال: «**فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الريَّان، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة**».

«**الريَّان**»: علىٰ وزن فعلان من الرِّي وهو نقيض العطشان، فلاحظ أنه روعي فيه مناسبة بين العمل والجزاء، يعني الله ﷻ اختار اسماً لعبادة الصيام؛ الاسم نفسه يوحي بالجزاء والثواب، الاسم نفسه دال علىٰ كمال الثواب للصائم، **رُوعي في اسم الباب الخاص بالصائمين الإيحاء بثوابهم، وهذا من كمال التنعيم الحِسِّي والمعنوي**، هذا من كمال التنعيم، الاسم نفسه -يا إخوان- يُبرِّد جوف الصائمين، لمَّا يعلم المؤمن وهو صائم أن الباب الذي خُصِّص لعبادة الصيام اسمه «**باب الريَّان**»، ذَكَر الرِّي واقتصر به عن الجوع لأن أغلب ما يكون علىٰ الصائم هو إحساسه بالعطش.

نتقل إلىٰ المعنىٰ الثالث أو الإشارة الثالثة: وهي «**مشهد الإغلاق**».

لا شك أن المعاني التي تناولناها قبل قليل وهي:

- أن الله جلَّ وعلا خصَّص باباً من أبواب الجنة للصائمين.
- وأن اسم هذا الباب كان فيه فرادة حيث سُمِّي «**باب الريَّان**».

لكن الحقيقة من أكثر الأمور تأثيراً في هذا الحديث هو: **مشهد إغلاق الباب**، والله -يا إخواني- أنه مؤثِّر سواءً للشخص لمن كتب الله أن يدخل مع هؤلاء الصائمين أو من حُرم ولا حول ولا قوة إلا بالله من هذا الدخول، **الحديث مؤثِّر**، ففي البخاري عن سهل عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن في الجنة باباً يقال له الريَّان يدخل منه الصائمون يوم القيامة؛ لا يدخل منه أحدٌ غيرهم يُقال أين الصائمون فيقومون لا يدخل منه أحدٌ غيرهم**» -تأكيد من جديد- ثم يقول النبي ﷺ: «**فإذا دخَلوا أُغلق فلم يدخل منه**

أحد»، (**فإذا دخلوا**) يعني: الصائمين؛ دخلوا باب الريَّان (**أُغلق**): الباب (**فلم يدخل منه أحد**)، بالله عليك تخيَّل ذلك الباب العظيم «**باب الريَّان**» يُغلق ويُقفل علىٰ وقع آخر خُطىٰ صائمٍ يَلِجُ منه، والله مشهد مؤثِّر، سواء كان ذلك الشخص الصائم الذي أدخله الله من ذلك الباب ورآه يغلق خلفه أو ذلك الشخص الذي كان ينتظر الثواب لكنه حُرم من الدخول من «**باب الريَّان**»، هذا يدعو المؤمن إلىٰ:

١ – أن يتَّقي الله في صيامه حتىٰ يتقبَّله الله منه.

٢ – ويدعو المؤمن أيضـًا أن يُكثر من الصيام وأن تَغْلِب عليه عبادة الصيام.

آخر معنىٰ من المعاني التي نُريد أن نتناولها اليوم هي ما يمكن تسميتها: «**أمارة التأهُّب**».

ففي الصحيحين في ذِكر قصة غزوة تبوك قالوا: أنه غزىٰ رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، ولذلك لم يَعْذُر أحدا الحق تبارك وتعالىٰ بل استنفر الناس كلهم، فقال ﷻ: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة:٤١]، ما عَذَر أحدا، طلب الجميع أنه ينفر، ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة:٤١]، ثم ذكر المنافقين وغيرهم ممن أراد أن يستأذن وتبلَّد حسه وتملَّص من المشاركة في هذه الغزوة التي استنفر الله ﷻ فيها الناس كلهم، لما ذكر الله ﷻ أعذارهم قال: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة:٤٤–٤٥]، ثم ردَّ الله علىٰ حُجتهم وعُذرهم بأن بيَّن شيئـًا من حالهم يكشف أصلاً انعدام الصدق في إرادة الجهاد والغزو مع رسول الله ﷺ، يقول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً﴾ [التوبة:٤٦] والله هذه حُجَّة تستكشف أعماق وأغوار النفس البشرية، ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً﴾ [التوبة:٤٦]، لكنهم ما أعدوا العدة؛ دل علىٰ ماذا؟ دلّ علىٰ أن القلوب لم يكن فيها عزيمة أصلاً علىٰ الجهاد ولم يكن فيها قصد للجهاد.

هذه الآية ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ﴾، **لا تختص بباب الجهاد فقط بل فيها معنىٰ عام**، لذلك كان علماء السلوك الإسلامي يستشهدون بها في كثير من العبادات في العلم والعمل، يعني: مثلاً ابن القيِّم في «**مفتاح دار السعادة**» أنتم تعرفون أن ابن القيِّم في «**مفتاح دار السعادة**» عقد فصول طويلة جدا في المقارنة بين العلم والمال والمفاضلة بينهما والاحتجاج لفضل العلم علىٰ المال ومن ضمن ما قرَّره في تلك الفصول الطويلة

قال: (أن العلم هو عُدَّة السفرِ إلىٰ الله) ثم استشهد بقول الله ﷻ: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ﴾ [التوبة:٤٦] أن العلم هو عُدَّة السفر إلىٰ الله.

ثم قال: (ومن أراد شيئًا هيأ له عُدَّته)، هذا هو المعنىٰ العام المُستنبط من هذه الآية، ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ﴾ [التوبة:٤٦] ولذلك الآن الإنسان المُقبل علىٰ رمضان يبحث ما في نفسه:

هل القلب مُمتلئ بالعزيمة علىٰ الصيام؟

هل القلب مُمتلئ بالعزيمة علىٰ تقوىٰ الله في الصيام؟

هل القلب مُمتلئ بالعزيمة والنية والجِدِّية في قيام الليل واستثمار ساعات رمضان في القرآن؟ ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ﴾ [التوبة:٤٦].

لا بد أن تظهر آثار علىٰ النفس البشرية، يعني: مثلاً أن من آثارها أنَّ الإنسان الصادق في استثمار ساعات رمضان تجد أنه مهموم قبل رمضان يُريد أن يُقلِّل الصوارف قدر الإمكان ويَخْلُص منها ويُنهيها قبل رمضان لِمَ؟ يريد أن يتفرغ للعبادة في رمضان، والإنسان غير المهتم تجده ربما -والله المستعان- يعني: تجده قبل رمضان ربما يُعِدّ الاستراحة للسهرات أو الألعاب أو يفكر في برامج ومسلسلات رمضان، شتان بين الاثنين.

ولذلك الله ﷻ: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ﴾ [التوبة:٤٦] فالإنسان الذي يريد شيئًا يُهيئ له عُدَّته، ولا يليق أن يُقبل علينا هذا الشهر الكريم والقلوب غافلة لاهية، غير مكترثة غير عابئة، لا بد الآن القلوب يتحرك فيها الشوق إلىٰ شهر رمضان، فهذا دليل علىٰ الصدق في إرادة عبادة الله ﷻ في هذا الشهر الكريم.

هذه بعض المعاني وهذا هو المجلس الثالث، ولعلنا نلتقي بكم قريبًا إن شاء الله في المجلس الرابع من هذه المجالس عن «**المغزىٰ الرمضاني**»، وفَّق الله الجميع لما يحبه ويرضاه والله أعلم وأحكم وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المجلس الرابع

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، ثم أما بعد:-

نواصل الليلة بإذن الله مجالس «**المغزىٰ الرمضاني**»، وقد سبق لنا في المجالس الثلاثة السابقة أن تناولنا عدة إشارات ومُعطيات في النصوص الشرعية عن الصيام في رمضان، ونواصل اليوم في هذا المجلس الرابع بعض هذه المعاني وهي ثلاث معاني:

١ - السياحة المُقيمة.

٢- وصنائع العبادة.

٣- والتسلية باشتراط الفرضية.

فأما «**السياحة المقيمة**» فقد كان فيمن كان قبلنا من الأمم أقوام تشتد رغبتهم في عبادة الله، فيتقرّبون له بالرهبانية، يتقربون لله بترك اللذائذ والشهوات ودهس الغرائز والانقطاع عن الناس في الديارات والصوامع، كما قال الله ﷻ في سورة الحديد عن النصارىٰ ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد:٢٧].

و«**الرَهبانية**»: بفتح الراء أصلها الرهبة، وتُضم؛ وهي بالضم «**رُهبانية**» تكون نسبة للرُّهبان، ولكن لماذا أُخذت من الرهبة؟ لأن مثل هذا المستوىٰ من التقرب يكون باعثه شدة الخوف والرهبة وضعف الرجاء فيحمِل العابد نفسه علىٰ المشقات من شدة قرص الفَرَق والفزع.

وكان من ألوان وأنواع هذه الرهبانية ما يسمىٰ «**السياحة**»، هذه عبادة في الأمم السابقة كانوا يتعبدون بها اسمها «**السياحة**» وهي: أن يأخذ العابد نفسه بالتواري في الأرض؛ يمشي في البرية لغير مقصد، ويصرف نفسه عن التماس الزاد ويتوكل علىٰ الله أن يرزقه عند الحاجة.

وقال «**سفيان بن عيينة**»: (**إذا ترك الطعام الشراب والنساء فهو السائح**)، وكما جاء النص القرآني في أن الرهبانية بدعة فقد جاءت الآثار عن أن السياحة بهذا المعنىٰ بدعة أيضًا، وأنه لا سياحة في الإسلام بهذا المعنىٰ الرهباني السابق كما جاء عن «**طاووس**» أنه قال: (**لا سياحة في الإسلام**)، وهذا الأثر عند عبد الرزاق في مصنفه.

وفي المرويات التي طاف «**الخلال**» الدنيا لجمعها عن الإمام أحمد وكان منها جزء عن (**أحكام النساء**)؛ سُئل الإمام أحمد عن الرجل يسيح يتعبّد أحبّ إليك أم المُقام في الأمصار؟ فقال الإمام أحمد: (**ما السياحة من الإسلام في شيء ولا من فعل النبيين ولا الصالحين**).

وسُئل الإمام أحمد أيضـًا في نفس هذا الكتاب -في نفس هذا الموضع- قيل له: ما تقول في السياحة يا أبا عبد الله؟ قال: (**لا، التزويج ولزوم المساجد**).

ونبّه الإمام ابن تيمية أنَّ السياحة من أفراد الرهبانية فقال في «الاقتضاء»: (**وأما السياحة التي هي الخروج في البرية لغير مقصد معين فليست من عمل هذه الأمة؛ وهي من الرهبانية المبتدعة**)، فالسياحة من أجناس وأفراد الرهبانية المبتدعة.

«**أبو عبد الله بن رُشيِّق**» وهو أخص تلامذة ابن تيمية بمعرفة رسائله وخطِّه وكُتبه حتىٰ أن الإمام «**ابن كثير**» كان يقول عنه: (**كان أبصر بخط شيخ الإسلام ابن تيمية منه**)، حتىٰ أنه قد يستغلق علىٰ الإمام ابن تيمية أحيانـًا بعض المخطوطات التي كُتبت ويعرفها ابن رُشيِّق.

فإنه لما جرد أسماء رسائل ابن تيمية لأنه سُئل عن ذلك فجرد أسماء رسائل ابن تيمية؛ ذكر له رسالة مفردة بعنوان: «**قاعدة في السياحة ومعناها في هذه الأمة**»، وهو في كتبه أشار مرارا إلىٰ هذا المعنىٰ، هل هذا كل شيء في هذا المعنىٰ؟ هل يقتصر الأمر علىٰ أن الأمم السابقة كان فيهم رهبانية وسياحة وأن الله منع عنّا الرهبانية؟ لا طبعا.

فإن الله ﷻ ما نهىٰ عن شيء إلا وشرع لهذه الأمة ما هو خيرٌ منه:

- فإن كان شراً شرع لنا ما هو ضده من الخير.
- وإن كان خيرا اختلط بشر شرع لنا ما هو من جنسه بتخليص ما فيه من الشر.
- وهذه الرهبانية والسياحة التي كانت فيمن كان من الأمم ويعدونها أعلىٰ مراتب الانقطاع إلىٰ الله وأعلىٰ مراتب الانصراف عن الغرائز ومدافعتها وقطعها شرع الله لنا بدلاً عنها وهي: عبادة الصوم، واللطيف حقا أن الله ﷻ سمّاه السياحة، فإن الله جلَّ وعلا يقول في سورة التوبة: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة:١١٢].

وجماهير السلف علىٰ أن السياحة هنا في هذا الموضع هي عبادة الصيام، وجاء فيها أحاديث مرفوعة وموقوفة ومقطوعة، بل إن ابن جرير الطبري علىٰ تبحره المعروف في نقل خلاف السلف في التفسير -وهذا أمر مشهور- ابن جرير الطبري من أخبر الناس بمقالات أهل العلم في التفسير ومن أنقل الناس لها، يحرص علىٰ نقل الخلاف في التفسير -خلاف أئمة السلف- لم ينقل في تفسير هذه الآية إلا هذا القول، ما نقل عن أئمة السلف في معنىٰ السياحة إلا هذا القول أنها عبادة الصيام، وهو أن السائحين هم الصائمون،

لكن ما علاقة السياحة بالصيام؟

إذا عرفنا الآن أن قول الله ﷻ في هذه الآية في سورة التوبة «**السائحون**» أن معناها هم الصائمون؛ **فما علاقة السياحة بالصيام**؟ ولماذا سُمِّيت عبادة الصيام بالسياحة؟ والتي نعرف أنه كان فيمن كان قبلنا من الأمم من كان يعمل بمثل هذه السياحة ونهىٰ الله عنها، لماذا اختار الله أن يُعبِّر عن عبادة الصوم بالسياحة؟

يقول ابن عطية في تفسيره: (**وشبَّه الصائم بالسائح من حيث ينهمل السائح ولا ينظر في زادٍ ولا مطعم، وكذلك الصائم يُمسك عن ذلك فيستوي هو والسائح في الامتناع وشظف العيش لفقد الطعام**).

وقال «**الأزهري**» -من أئمة اللغة-: (**قيل للصائم سائح؛ لأن الذي يسيح في الأرض مُتعبِّدا لا زاد معه، كان مُمسكًا عن الأكل والصائم يُمسك عن الأكل، فلهذه المشابهة سمي الصائم سائحًا**).

لعلك تلاحظ الآن أن تسمية الصوم بالسياحة التي بلغت في الأمم السابقة غاية ما يكون من الانقطاع إلىٰ الله فيه إلماحة تشريفية بديعة لعبادة الصوم، وثمة عبادة أخرىٰ شاركت الصوم في هذه التسمية وهي كما قال ابن تيمية في رسالته المفردة في المُفاضلة بين المرابطة والمجاورة لمَّا سُئل عنها؛ أفرد لها رسالة في المُفاضلة بين المرابطة والمجاورة وقال: (**فُسِّرت السياحة بالصيام وفُسِّرت بالجهاد وكلاهما مروي عن النبي ﷺ**).

وهذا المعنىٰ الشرفي الثاني للسياحة ليس هو موضع حديثنا هنا، وله محل آخر إن شاء الله، لكن المقصود أن نلتمس الدلالات والمغزىٰ والمعنىٰ من تسمية الشارع لعبادة الصوم بالسياحة، فهذا ليس مجرد لقب عفوي، **هذا فيه تشريف، فيه تعظيم، فيه تبجيل لعبادة الصيام**.

وعلىٰ أيّة حال فإن متدبر القرآن إذا تأمّل :

- كيف اختار الله للصوم اسمـًا شرفيا وهو (**السياحة**) وميَّزه عن بقية الشعائر بذل؟!

- وكيف اختار الله للصوم اسمًا مُنفردا من أبواب الجنة فلم يسمي الباب باسم العبادة ذاتها كباب الصلاة وباب الصدقة ونحوها كما مرَّ معنا في المجلس السابق بل سمَّاه (**باب الريان**)؟! أدرك أن هذه التشريفات رسائل مؤثرة في ملأ القلب بعظمة هذه العبادة عند رب العباد.

فكيف يقرأ المؤمن -بالله عليكم- هذه الرسائل التشريفية المتواطئة المتظاهرة علىٰ تأكيد هذا المعنىٰ ويُفلِت من بين يديه استحضار الإخبات لله في هذه العبادة العظيمة؟ عبادة بلغت منزلتها هذه المنزلة؛ في تشريعها؛ في فضائلها؛ في مناقبها؛ في أسمائها؛ فكيف يَفوت علىٰ الإنسان استحضار هذه المنزلة أثناء صومه؟.

وأما المعنىٰ الثاني الذي سنتداوله اليوم أيضًا فهو بعنوان: (صنائع العبادة).

فرؤية الدم المسفوك مُستبشع للنفس البشرية، حتىٰ أن الإنسان إذا عُرضت له صور القتلىٰ علىٰ الشاشات أو في مواقع التواصل الاجتماعي وقد تلطّخت بالدماء ازورّت عينه عنها تلقائيًا -عفويًا- لماذا؟ لأنها فعلاً مُستبشعة صور الدماء في النفوس البشرية.

ولكن دم الشهيد عند الله له منزلة أخرىٰ، هذه الدماء الملطخة علىٰ جسد وملابس الشهيد أمر النبي ﷺ بتركها علىٰ حالها كما في البخاري عن جابر في قصة قتلىٰ أحد أنه قال: (وأمر بدفنهم في دمائهم ولم يُغسَّلوا)، أبقىٰ دماء الشهداء علىٰ حالها في ملابسهم وأجسادهم، برغم أن المؤمن الميت يُغسَّل وشُرع له التغسيل، والتغسيل تكريم؛ لكن هذا تكريم فوق التغسيل، **لماذا تركهم النبي ﷺ بدمائهم؟**

لأنه كما في البخاري عن أبي هريرة أنَّ النبي ﷺ قال: «**كل كلمٍ يُكلمه المسلم في سبيل الله يكون يوم القيامة كهيئتها**، -يعني كهيئة الجِراحة- **إذ طُعنت تفجَّر دمًا اللون لون الدم والعَرْف عَرْف المِسْك**» يعني الطيب أو الرائحة.

حسنًا؛ إذا كان لون الدم المسفوك ورؤية الدماء المتلطخة بالجراحات تشمئز منها النفوس بطبيعتها البشرية **فلماذا أبلغها الله هذه المنزلة الشريفة**؟ فنهىٰ عن غسلها وأتىٰ بها يوم المحشر وهي تتضوَّع مِسْكًا يفوح بين الناس، لماذا؟ **الجواب**: لأنها أثر من آثار التعبُّد والطاعة والخضوع لله ﷻ.

فبالله عليك انظر كيف تفعل الطاعة في آثارها؟ الله تعالىٰ يُجِل من عبده أثر العبادة عليه، حتىٰ لو كان هذا الأثر مما تنفِر منه النفوس البشرية؛ ومما هو من هذا الجنس أن الناس يحبون أن يعتمُّوا وأن يضعوا

علىٰ رؤوسهم شيئًا من الزينة كعِمامة أو قُبّعة أو نحوها، وكشف الرأس هو في الأصل خلاف الزينة العامة.

ومن أحسن الزينة أيضًا الطيب والعطورات، ولذلك فإنَّ الله شرع في الحج ألا يُغطِّي الحاج رأسه، وجعله من محظورات الإحرام، وهكذا نهىٰ المُحرِم أيضًا عن الطيب وجعله من محظورات الإحرام، وفي الصحيحين من حديث ابن عباس قال: «**بينا رجلٌ واقفٌ مع النبي ﷺ بعرفة إذ وقع عن راحلته فوقصته، (يعني: دقَّت عنقه)، فقال النبي ﷺ: «كفِّنوه في ثوبين ولا تُمِسُّوه طيبًا ولا تُخَمِّروا رأسه فإنَّ الله يبعثه يوم القيامة مُلبيًا**».

المسلم إذا مات يُغطىٰ رأسه ويُطيَّب، أما من مات وهو مُحْرِم فلا يُغطىٰ رأسه ولا يُمسّ بالطيب، لماذا؟ لأن هذه آثار العبادة، والله يُحبها وإن كانت في النفوس البشرية أقل من ضدها جمالاً لكنها عند الله أرفع؛ لماذا؟ لأنها (**صنائع العبادة**) علىٰ الإنسان، وهكذا في عبادة الصوم، كما أن الله ﷻ يحب بقاء آثار الشهيد من الدماء عليه ويحب أن يبقىٰ الحاج في عدم تغطيته لرأسه وفي تركه للطيب فإن النبي ﷺ قال: «**لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك**».

هذا الأثر الذي يبقىٰ علىٰ الصائم بسبب خلو الجوف أو خلو المعدة وهي هذه الرائحة المُستكرهة للنفوس البشرية؛ هي أطيب عند الله من ريح المسك.

وأما المعنىٰ الثالث فهو: (**التسلية باشتراك الفرضية**).

فإنه حين أخبرنا الله ﷻ عن فرض الصوم علينا زوَّدنا بمعلومة تاريخية فيها قدر زائد علىٰ مجرد الحكم بفرض الصوم، ولكن لها دَلالات ومغزىٰ عظيم، فقد قال الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ [البقرة:١٨٣].

فقول الله ﷻ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ [البقرة:١٨٣] هذا حُكم وفرض وإيجاب وإلزام؛ ولكن لماذا أردف الله هذا الحكم بخبر عن تاريخ الأمم السابقة؟ لماذا قال الله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ [البقرة:١٨٣]؟ هذه معلومة تاريخية، الإيجاب والفرض يكون بقول الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ [البقرة:١٨٣]، **لماذا أردف الله هذا الحكم بهذه المعلومة التاريخية؟**

هذا له دلالات: منها أن الله تعالىٰ يخبرنا بما يُسهِّل العبادة علينا، فإنّ الشاق إذا عمّ سَهُل، ففيه تسلية للقلوب، هذه الفريضة ليست تشديدا اختصَّت به هذه الأمة، بل هي عبادة يشتركون فيها مع الأمم السابقة،

فليس فيها مشقة، فالشاق لا يَعُم، والآصار والأغلال حالات خاصة لدواعي زجرية خاصة، هذا فيه تقريب للقلوب لهذه العبادة، لكن هل معنىٰ قول الله تعالىٰ: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة:١٨٣] أن التشبيه هنا يعني تماثل الفريضة بأن تكون كل الأمم فُرض عليها صيام شهر في السنة كما فُرض علينا؟.

الجواب: لا، فإن التشبيه هنا هو في أصل العبادة لا في كميتها وكيفيتها، وهذا شائع في استعمال أداة التشبيه في لغة العرب وله أمثلة أيضًا في النصوص الشرعية:

- **ومنها مثلاً**: أن ابن القيِّم في «**جلاء الأفهام**» لمَّا تحدَّث عن مسألة تشبيه الصلاة علىٰ النبي ﷺ بالصلاة علىٰ إبراهيم كما في التشهد: (اللهم صلِّ علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد كما صليت علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم).

هنا ورد سؤال عند كثير من أهل العلم: كيف تُشبَّه الصلاة علىٰ النبي ﷺ بالصلاة علىٰ إبراهيم ﷺ برغم أن محمد ﷺ أفضل من إبراهيم ﷺ؟ ابن القيِّم ذكر هذا المثال وبين طبعًا بمناقشات طويلة وكان من ضمنها أن ذكر هذا المثال، وهو قول الله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة:١٨٣]، ثم قال ابن القيم: (**التشبيه هنا إنما هو في أصل الصوم لا في عينه وقدره وكيفيته**).

- وهذا أيضًا مثل قول الحق تبارك وتعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النساء:١٦٣] فالتشبيه هنا بأصل الوحي وليس معناه أنَّ ما أوحي إلىٰ محمد هو عينه أو قدره أو كيفيته أو كميته الذي أوحي إلىٰ الأنبياء السابقين.

ومن المغزىٰ الدقيق أيضًا في هذه الآية ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة:١٨٣] إثبات أن عبادة الصوم من العبادات الكُبرىٰ ومن أمهات الطاعات، لماذا؟ لأنها اشتركت فيها الشرائع، وهذا يعني شدة مناسبتها لكل زمان ومكان، وهذا يعني أيضًا كمال مناسبة عبادة الصيام للنوع الإنساني والفِطرة البشرية وانتفاعها بها، وإلا لما جعلها الله من الشرائع التي تشترك فيها الأمم الموحىٰ إليها.

فإذا استحضر المؤمن حال الصيام حُبّ الله لهذه العبادة حتىٰ أنه ﷻ شرعها لكل الأمم السابقة امتلأ قلب المؤمن بالواردات الإيمانية والإخبات لله في هذه الطاعة لأنه سيُعظِّمها لعظمتها عند الله ﷻ.

هذه بعض المعاني في هذا المجلس الرابع، ونلتقي بكم إن شاء الله ﷻ في المجلس القادم، والله أعلم وأحكم وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.